

عبور الأب جورج مسوح ذاكرات قاتلة

"1860 تاريخ وذاكرة نزاع" هو عنوان المؤتمر الذي عقد لثلاثة أيام في بيروت، وشارك فيه نحو أربعين أكاديمياً وباحثاً ينتمون إلى جامعات ومؤسسات دراسية في لبنان وسوريا وتركيا وفرنسا وسويسرا والولايات المتحدة الأميركية. وتوزعت الأوراق المقدمة في المؤتمر على أربعة محاور: الحدث، شهود عيان، الذاكرة والتاريخ، ومقاربة نقدية.

أحداث 1860 الطائفية لما تنته بعد. تستعيد ذاكرات في كل مرة تذرّ الفتنة الطائفية بقرونها منيذرةً بأيام سوداء وعجاف آتية عاجلاً أم آجلاً. أحداث عمرها قرن ونصف قرن، لكن آثارها ما زالت حية وماثلة في العقول والأفئدة. لذلك لم يتوان المشاركون عن المقارنة بين ما جرى سنتذاك وما يجري اليوم وما يهيا للغد إذا لم يتم تدارك الأمور والانتفاع من دروس الماضي الأليمة لتفادي مصير يكاد أن يكون محتوماً.

غاص الباحثون في سبر غور الأسباب والدوافع التي أدت إلى الحوادث المذكورة في جبل لبنان وفي دمشق. فلم يغفلوا الأبعاد الداخلية لها والصراعات على النفوذ والنزاعات الطائفية المنتشرة. غير أنهم بينوا أيضاً الأبعاد الخارجية التي فعلت فعلها السلبى في إذكاء النزاعات ووصولها إلى حد ارتكاب المجازر والمذابح والتهجير. فالسلطنة العثمانية بولاتها والدول الأجنبية بقناصلها أدت دوراً كبيراً في الحز على النزاع عبر إغداقها الوعود بالمساندة والدعم، واستجاب لها أصحاب الطوائف والمذاهب قارعين أنفجار الحرب.

وأبرز المحاضرون الذين قدّموا أبحاثاً عن شهود العيان، الذين دونوا مذكراتهم عن تلك الحوادث في مخطوطات بعضها لم ينشر بعد، كيف أنهم عبروا عن خيبة الأمل بالدول التي حضتهم على النزاع ثم تخلت عنهم عندما تبدلت المصالح والأهواء العليا. ففرنسا وروسيا والسلطنة العلية وسواها من الدول استغلت الغرائز الطائفية الموجودة أصلاً لدى الجماعات الدينية العديدة المنتشرة في بلاد الشام ولبنان لتوريطها في الحوادث ثم اللعب بها كما يلعب الهواء بأوراق الشجر.

كما تناول بعض المشاركين النتائج الاقتصادية والخسائر الهائلة التي ترتبت عن النزاعات، والتعويضات التي صرفت للمتضررين. ولم يغفل هؤلاء الإشارة إلى الفساد الذي ساد توزيع تلك التعويضات والرشاوى التي دفعت لبعض الوجهاء ورجال الإكليروس الذين أسهموا في تحصيلها. فديمترى الدباس الدمشقي (1837-1912) الذي هاجر إلى بيروت إبان تلك الحوادث التي دون أخبارها في مذكراته يقول: "كانت أكثر النقود تدفع براطيل إلى أعضاء الكومسيونات. وصارت تباع المائة بستين أو سبعين يأخذها أغنياء بيروت فيدفعون منها للحكومة ويقبضونها، حتى صارت مصائب قوم لقوم فوائد".

يضيق بنا المجال هنا لعرض كلِّ وقائع هذا المؤتمر، غير أنه يسعنا القول بأنَّ الأبحاث التي قُدمت كانت على مستوى رفيعٍ من العلمية والدقة والصراحة الفائقة. والمشاركون لم ينحازوا إلى سوى البحث عن الموضوعية والاقتراب قدر الإمكان من الحقائق التاريخية، إذ يتعذر الوصول إلى حقيقة جازمة في التاريخ. وقد صدق الكاتب سليمان تقي الدين حين قال: "التاريخ السياسي يسيطر على التاريخ الاجتماعي. ولم نجد بعد رواية نقدية تؤسس لتجاوز ذاكرة الحروب".

هذا المؤتمر بكلِّ ما دار فيه من أفكار ونقاشات مهمّ جدًّا. فالسوريّون واللبنانيّون، مسلمون ومسيحيون، الذين يمرون اليوم في فترة عصيبة تتحدد فيها مصائرهم ينبغي لهم اسخلاص العير والدروس مما جرى في بلادهم عام 1860 وسواه من أعوام المحن والفتن كي لا يسقطوا مجددًا في الفخ الذي سقط فيه أجدادهم.